بحث محكم | قسم الدراسات الدينية | 05 نوفمبر 2016

# رمـزيّة الألـــوان:
# من المقدّس الدّيني إلى السّياسي

**شكري بوشعّالة**
باحث تونسي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2016
All rights reserved © 2016

# رمـزيّة الألـــوان[1]:
## من المقدّس الدّيني إلى السّياسي

1- هذا البحث في أصله هو مداخلة ألقيتها في إطار الحلقة الثانية من النّدوة الدّوليّة حول **الرّمز والصّورة وإنتاج المعنى**، يومي 24-25 أفريل 2014 م، التي نظّمتها وحدة بحث **المتخيّل** بكليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بصفاقس. وقد أخذتُ الإذن بنشره من الجهة المنظّمة.

**الملخص:**

**إشكاليَّات البحث:**

ما دور المقدَّس الدّيني في تشكيل الإرث الرَّمزي للألوان؟ وما فاعليَّة هذا الدَّور في المجتمع السّياسي؟ ما وظائف الألوان؟ وما أبعادها الدّلاليَّة؟هل تتفاوت الألوان قدرة على حمل دلالات دينيَّة مقدَّسة وإنتاج المعاني القدسيَّة؟ ما الأثر الدّيني في تشكيل سيميائيَّة اللَّون؟ وما وجوه الانزياح في دلالة الألوان ورمزيَّاتها عبر التَّاريخ البشري؟ إلى أيِّ مدى وفِّق السَّاسة التونسيُّون في استثمار الإرث الرَّمزي للونٍ من الألوان في تشكيل الهويَّة البصريَّة لأحزابهم وحركاتهم السّياسيَّة؟

**الخطوط العامَّة لمنهجيَّة البحث:**

المقدّمة: الألوان وأهمّيَّة البحث فيها - معنى اللَّون - رمزيَّة الألوان - الألوان والشِّعر - الألوان والفلسفة -الألوان في الثَّقافة العربيَّة الإسلاميَّة - الألوان علميًّا - إشكاليَّات البحث.

I- الألوان والأديان:

- مدخل

- الألوان في القرآن والسُّنَّة

II- الألوان والسّياسة أو سياسة الألوان

- مدخل: في أثالة العلاقة بين اللّون والسُّلطة

- سيميائيَّة الألوان والهويَّات البصريَّة للأحزاب السّياسيَّة التُّونسيَّة.

- الخاتمة

## المقدّمة

ليست الألوان مجرَّد معطى طبيعيّ منحته الطَّبيعة للإنسان، بل إنَّ لها من الدّلالات والمعاني والرُّموز ما يشي بأهمّيتها وفاعليَّتها في حياته[1]، وكيفما قلّبنا النَّظر في مبحث «الألوان» وجدناه وثيق الارتباط بالإنسان في حلّه وترحاله في سلمه وحربه ومعتقده وعاداته وتقاليده وفي كلِّ جوانب حياته وتجربته الوجوديَّة، فللألوان فلسفة، وهو ذاته مبحث فلسفيّ، وللألوان تاريخ وصلة بالعقائد والطّقوس والشَّعائر الدّينيَّة والأنظمة السّياسيَّة والحياة المدنيَّة، الألوان تطوّقنا من حيث نعلم ولا نعلم في الحلم واليقظة، ونكاد نجزم بأنَّها جزء لا يتجزَّأ من ذاكرة الإنسان، بل هي علامة على أفكاره وأحاسيسه وانفعالاته بشتَّى ضروب الفنون والمعارف، لذلك أولاها علماء الاجتماع والأنتروبولوجيا قدراً كبيراً من الأهمّيَّة، واتَّخذوها مطيَّة لفكِّ شفرة الإنسان وفتح مغالق «أناه».

وسواء تعلّق الأمر بالطُّقوس أو بالأديان والمعتقدات فإنَّ الألوان تبقى مدخلاً هامَّاً وخطراً يتوسَّله الباحث لمقاربة عالم الإنسان، وكلُّ تاريخ للألوان لا يمكن أن يكون سوى تاريخ اجتماعيّ يُعرَّف أوَّلاً بأنّه فعل مجتمعيّ، إذ «المجتمع هو من يصنع اللَّون ويمنحه تعريفاً ومعنى، ويضع قوانينه وقيمه وينظِّم استعمالاته، وإشكالات اللَّون هي أوّلاً ودائماً إشكالات اجتماعيَّة، لأنَّ الإنسان لا يحيا وحيداً، بل يحيا في إطار المجتمع»[2].

وإذا سلَّمنا جدلاً مع عبد الوهَّاب بوحديبة بأنَّ رمزيَّة الألوان ليست كونيَّة لحياديَّتها وافتقارها للعقل حتَّى يمنحها المعنى، فإنَّ ذلك مفضٍ بالضَّرورة إلى طرح مبحث الألوان من زاوية ثقافيَّة، بل هو مسألة ثقافيَّة بالدَّرجة الأولى، «وإذا وجد بين المجتمعات تماثل في إدراك الألوان فإنَّ ذلك من قبيل المصادفة، ولا يعني أنَّ هويَّة واحدة تجمعها، أو أنَّ نظاماً اجتماعيَّاً يلفُّها»[3].

لا ينفصل اللَّون إذن عن الثَّقافة «وإنَّما هو منها، تشكِّله ضروباً وتؤلِّفه أجناساً...، وليست الأمم في الألوان على مذهب واحد وسُنَّة وحيدة، وإنَّما النَّاس في إدراك اللَّون متباينون».[4]

---

1- يقول: "ليس اللّون ظاهرة طبيعيّة بقدرما هو تركيبة ثقافيّة معقدة تتأبّى على كلّ تعميم أو تحليل، وتطرح العديد من القضايا الصّعبة".

Michel Pastoureauفي هذا الإطار: « La couleur n’est pas tant un phénomène naturel qu’une construction culturelle complexe, rebelle à toute généralisation, sinon à toute analyse.Elle met en jeu des problèmes nombreux et difficiles ». Bleu, Histoire d’une couleur.édition du Seuil 2000. p5.

2- المرجع السّابق: ص 8

3- راجع: عبد الوهاب بوحديبة في مقاله الموسوم بـ: Les Arabes et la couleur, dans « Culture et société ». Publication de l’université de Tunis 1978. Fac des lettres et sciences humaines de Tunis. 6ème série. Philosophie littérature – vol-ume XII P.P 73 - 85. ص 73

وأيضاً فيصل سعد في مؤلّفه :عذاب القبر في المتخيّل الإسلامي ّمنشورات وحدة البحث في المتخيّل بكليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بصفاقس، جامعة صفاقس /تونس .ط، 2012 1 ص165

4- الصّادق الميساوي: الألوان في اللّغة والأدب، ضمن: حوليّات الجامعة التّونسيّة العـ36ـدد 1995م ص 251

وفضلاً عمَّا تقدّم أكَّد Michel Pastoureau[5] أنَّ أوَّل حقل يهتمُّ به دارس الألوان في مجتمع ما هو الحقل اللُّغويّ والجانب اللِّسانيّ والمُعجميّ، لما يوفِّره للمؤرِّخ والباحث بشكل عامّ من مادَّة ثريَّة ومعلومات مفيدة عن تصوُّر هذا المجتمع أو ذاك للألوان دلالة ورمزاً وإنتاج معنى.

لقد أجمعت أغلب المعاجم العربيَّة على أنَّ اللَّون «هيئة كالسَّواد والحمرة، ولوَّنته فتلوَّن، ولون كلّ شيء ما فصل بينه وبين غيره، واللَّون النَّوع والألوان والضُّروب، وفلان مُتلوِّن إذا كان لا يثبت على خلق واحد»،[6] ومن هذا التَّعريف المختصر لكلمة اللّون نستنتج أنَّ من معانيها الاختلاف والتَّمايز وعدم الثَّبات، وأنَّها مشحونة ببعض الدّلالات السَّلبيَّة.»

وفي الكثير من اللُّغات اشتقَّت كلمة اللَّون colorant/couleur/color من كلمات تعني «الغطاء»، وفي اللَّاتينيَّة اشتقَّت كلمة « color » من كلمة celare (كيلاري) أو occulere بمعنى «يغطّي» أو «يستُرُ»[7]. وقد تسبَّب هذا الاشتقاق اللّغويّ حسب Pleij Herman في تضليل علماء اللَّاهوت فاتَّخذوا مواقف استهجانيَّة من الألوان، واعتبروها بريقاً دنيويَّاً خادعاً. وأشار إلى أنَّ كلمة «اللّون» في هولندا كانت تعني «البريق الخادع» إبَّان العصور الوسطى، وطُعماً مغالطاً بيد الشَّيطان يوقع به البشر في شراكه.

أمَّا عن معاني الألوان منفصلة فقد حاول عبد الوهّاب بوحديبة[8] تتبُّع دلالات بعض الألوان في المعاجم العربيَّة، فعرض مثلاً لجذر «زرق» ومن معاني مشتقَّاته «زَرَقَهُ بعينه وببصره زرقاً: أحدَّه نحوه ورماه به، وزرقت عينه نحوي إذا انقلبت وظهر بياضها»،[9] و»رجل زرَّاق: خدَّاع، وتزورق الرَّجل: إذا رمى ما في بطنه»[10].

---

5- مؤرّخ فرنسي مختصّ في التّاريخ الوسيط وخبير عالميّ مختصّ في رمزيَّة الألوان، ولد بباريس، سنة 1947م.

راجع محاضرته بتاريخ 15 نوفمبر 2012 بعنوان «الأصباغ والملوّنات colorants et Pigments».

6- راجع ابن منظور: لسان العرب مج 13 مادّة لون ص 393 ط دارصادر، بيروت، د.ت.

- راجع أيضاAlfred Morabia: article « Lawn »E.I nouvelle édition T.V Ed.BRILL,LEIDEN Paris.G.P.Maisonneuve et Larose. S.A 1986 p: 704.

7. Pleij Herman

ألوان شيطانيّة ومقدَّسة :اللّون والمعنى في العصورالوسطى وما بعدها ترجمة صديق محمَّد جوهر .هيئة أبوظبي للثّقافة والتّراث" كلمة "ط.1 1431هـ 2010 .م ص21

8- في مقاله الموسوم بـ: « Les Arabes et la couleur », dans: Culture et société. Publication de l'université de Tunis 1978. Fac des lettres et sciences humaines de Tunis. 6ème série. Philosophie littérature – volume XII P.P 73 - 85

9- ابن منظور: لسان العرب، مج 10 مادّة زرق، ص 139

10- المرجع السّابق ص 140

وانتهى بوحديبة إلى أنَّ اللَّون الأزرق في إطار الثَّقافة العربيَّة الإسلاميَّة هو لون شيطانيّ diabolique فعينا الشَّيطان زرقاوان، وكذا عيون الزَّبانية وعيون المجرمين المحشورين في جهنّم[11]، فأن تنطق كلمة «أزرق» يعني استحضار الشرّ وحتَّى في خطابنا الشّفويّ اليوميّ مازالت دلالة الأزرق محيلة على السَّيِّئ والشَّر «ليلة زرقاء»، «نهار أزرق»، «مندبة زرقاء»...

ويرى محمَّد عجينة «أنَّ اللَّون الأحمر واللَّون الأزرق عند العرب لونان مكروهان، ويعتبران مشؤومين، ومن أمثلتهم السَّائرة: «أشأم من أحمر عاد»، و»أشأم من البسوس»».[12]

وبخلاف ذلك نجد فعل «خضر» مضمَّخاً بمعانٍ ودلالات إيجابيَّة، منها الغضاضة والطَّراوة، والخَضَر النَّخل، والخضراء: الكتيبة العظيمة، والخضراء السَّماء. وتتميَّز الخضرة «من سائر الألوان في الأساطير بمعنى خاصّ، ذلك أنَّها قرينة الشّجرة رمز الحياة أو التّجدُّد، نخلة كانت أم سدرة أم سمرة، وكانت «النَّخلة» شجرة السَّاميين المقدَّسة، وكانت «ذات أنواط» شجرة العرب المقدَّسة، و»العبلاء» شجرة ذي الخلصة».[13]

وحاصل ما تقدّم أنَّ التَّعريفات اللُّغويَّة للألوان هي مسألة ثقافيَّة بامتياز، وذات ارتباط وثيق بالتّصوُّر العامّ الذي نسجه المتخيّل الجمعيّ للألوان تأثُّراً بروافد ومرجعيَّات تضرب بجذور عميقة في التّاريخ كالأسطورة والأعراف والتّقاليد والأديان والمعتقدات.

ولعلَّ هذا ما يفسِّر ما ذهب إليه محمَّد عجينة من "أنَّ لكلِّ حضارة تقسيماً خاصَّاً لطيْف الألوان وإدراكاً واضحاً لبعضها دون بعض، ولرمزيَّة كلِّ لون منها التي تختلف بحسب متغيّرات متعدّدة ضمن السّياق والشَّبكة الرّمزيَّة التي يندرج ضمنها".[14]

وبغَضِّ النَّظر عن اعتباطيَّة العلاقة بين الدّالِّ والمدلول في المنظور السّوسريّ فإنَّ الدّلالات والمعاني المشار إليها في المعاجم اللّغويَّة تبقى في بُعدٍ من أبعادها صورة لتمثّل المجتمع للألوان عبر المتخيَّل الجمعيّ ونظام الألوان الرَّمزيّ المتواضَع عليه جمعيَّاً عبر سيرورة تاريخيَّة طويلة الأمد. وبهذا يتأكَّد تعريف **اللّغة** عند اللّسانيّين بما هي نظام من الرُّموز الصَّوتيَّة المخزونة في أذهان أفراد الجماعة اللّغويَّة، يترجمه **الكلام** عبر نشاط التّلفُّظ إلى رموز فعليَّة حقيقيَّة بعد وجوده بالقوَّة. "وهذه النَّظرة إلى اللّغة والكلام منبثقة من

11- راجع مقاله المذكور أعلاه ص 74 حيث يقول: Le bleu est d'ailleurs une couleur diabolique elle est celle des yeux de Satan mais aussi des redoutables Zabaniyas

12- محمّد عجينة: موسوعة أساطير العرب عن الجاهليّة. ج.2، ص 201. دار الفارابي، بيروت - لبنان ط1 1994م.

13- المرجع السّابق ص 200

14- نفسه ص 199

راجع أيضاً: Alfred Morabia Recherches sur quelques noms de couleur en arabe classique.Rev.StudiaIslamica. العـ21ـدد 1965م ص ص 61-99

الاتّجاه الاجتماعيّ الذي يجعل اللّغة نظماً مختزنة في العقل الجمعيّ ليس للأفراد فيها من أثر سوى الإفادة من مخزونها في التّطبيق العمليّ في الحياة"،[15] وما المعاني المسندة إلى الألوان سوى تجلٍّ من تجلّيات هذا النّظام الرّمزيّ.

لقد نبَّه الصَّادق الميساوي - في إطار نقده لمقاربة بوحديبة وموراربيا وعجينة لرمزيَّة الألوان في الثّقافة العربيَّة- إلى أنَّ أنظومة "الألوان العربيَّة دائريَّة، تتَّصل فيها الألوان اتّصالاً، فتجري العين من اللّون إلى اللّون دون توقّف: يشيع البياض حتَّى يتَّصل بالحمرة، وتتَّسع الحمرة حتَّى تتَّصل بالصُّفرة، وتنداح الصُّفرة حتَّى تصير سواداً، ويفشو السَّواد حتَّى يغدو خضرة، وتذيع الخضرة حتَّى تصبح زرقة، وتنتشر الزُّرقة حتَّى تدرك البياض..."،[16] "إنَّها أنظومة اتّصاليّة لا يرى العربيُّ فيها ما بين الألوان المتجاورة من تفاريق nuances حتَّى يميّزها، فرؤيته للألوان رؤية مجاليَّة: إنَّ اللّون في العربيَّة مجال لونيٌّ يمتدُّ من طرف إلى طرف، ويندّاح من حدٍّ إلى حدٍّ، فالبياض بياض، فإن شابته حمرة فهو بياض، فإن زادت حمرته فهو بياض، فإن اشتدّت حمرته فهو بياض، فإن احمرّ فهو بياض، وكذا الحمرة فسائر الألوان»،[17] لذلك شدَّد الصَّادق الميساوي على ضرورة التَّدقيق اللُّغويّ والاصطلاحيّ للألوان قبل الخوض في الدّلالات الرَّمزيَّة.

وأمَّا أدبيَّاً وبلاغيَّاً فقد حفلت المدوَّنة الشّعريَّة العربيَّة بأبيات بل بقصائد كثيرة احتفت بالألوان في شتَّى الأغراض الشّعريَّة وعبر الوسائل البلاغيَّة المختلفة من مجازات وتشابيه واستعارات وكنايات...، فتشكَّل في المخيَّلة الجماعيَّة العديد من الصُّور الشّعريَّة ذات الإيحاءات والإيماءات الرّمزيَّة والطّاقات التّخييليَّة[18].

وقد أثبت نقّاد الشّعر قديماً وحديثاً أنَّ الشَّاعر ابن بيئته، وأنَّ الصُّور الشّعريَّة في ما ينظمه من قصائد تستلهم فيما تستلهم من ألوان الطَّبيعة والكون المحيطين به فتطبع تجربته بلون خاصّ. ولمَّا كان «النَّاس أطوع للتَّخييل منهم للتَّصديق» بعبارة حازم القرطاجنّي (ت1386م) جنَّحت قرائح الأدباء والشّعراء في الخيال، وحرَّكت في المتلقّي ألواناً من التَّفاعلات النَّفسيَّة استقباحاً واستحساناً، تألّماً والتذاذاً، ولا يمكن بحال إنكار قيمة الألوان في تشكيل الصُّور سواء في النصّ المنتج أو في ذهن المتلقّي. وكلُّ الأدوات التَّعبيريَّة البيانيَّة والبديعيَّة هي وسائل تخييليَّة بامتياز في نظره. فلا غرابة والحال تلك أن يعرّف القرطاجنّيّ الشّعر بأنَّه «كلام مخيّل موزون، مختصٌّ في لسان العرب بزيادة التّقفية إلى ذلك والتئامه من مقدّمات متخيَّلة، صادقة كانت أو كاذبة، لا يشترط فيها، بما هي شعر، غير التَّخييل[19].

15- عبد العزيز مطر: علم اللّغة وفقه اللّغة، تحديد وتوضيح. دار قطري بن الفجاءة. ط1 - 1405هـ - 1985م. قطر. ص 16

16- الصَّادق الميساوي: الألوان في اللّغة والأدب: حوليَّات الجامعة التّونسيَّة العـ36ـدد 1995م ص 259

17- المرجع السَّابق. ص 264

18- أشار Gilbert Durand في مؤلّفه Les structures anthropologiques de l'imaginaire: Livre premier. Le régime Diurne de l'image. Ed. Dunod Paris 1992 p 69 إلى قيمة الطّباق في هذا النّظام (النّظام النّهاريّ)، فبيّن مثلاً أنَّ أغلب الصُّور عند Victor Hugo تحوم حول النّور والظّلمة، وأنَّ استعارات اللّيل والنّهار حاضرة بامتياز.

19- حازم القرطاجنّي أبوالحسن: منهاج البلغاء وسراج الأدباء. تقديم وتحقيق محمَّد الحبي بن الخوجة. دار الغرب الإسلاميّ، الطّبعة الثالثة، بيروت 1937 م ص 89

والتَّخييل في نظره هو أن «تتمثّل للسَّامع من لفظ الشّاعر المخيّل أو معانيه أو أسلوبه ونظامه، وتقوم في خياله صورة أو صور ينفعل لتخيُّلها أو تصوُّرها أو تصوُّر شيء آخر بها انفعالاً من غير رويَّة إلى جهة من الانبساط أو الانقباض[20].

لقد أقرَّ Michel Pastoureau بالعلاقة المتينة التي تربط بعض التّيَّارات الفنيَّة والأدبيَّة بالألوان ـ وفي مقدّمتها التيَّار الرُّومانسيّ ـ، وكشفت مقاربته لتاريخ اللّونين الأزرق والأخضر في الثَّقافة الأوروبّيَّة على سبيل المثال عن وجود محاولات جادَّة لجعلهما لونين مائزين للمعاني والمواضيع الرُّومانسيَّة[21]. وقسْ على ذلك بقيَّة الألوان وما ترمز إليه من معانٍ ودلالات في إطار الثّقافات البشريَّة المختلفة، وهو ما يعني أنَّ اللّون لا ينفصل عن الإنسان فنّاً وأدباً، بل يمكن اعتباره مقوّماً أساسيّاً من مقوّمات ملكة الإبداع لديه، يساهم بشكل من الأشكال في إجلاء ما يعتمل داخله من مشاعر وأحاسيس، ولعلَّ هذا ما يفسّر التفات السُّؤال الفلسفيّ إلى مبحث الألوان وإدلاء الفلاسفة قديماً وحديثاً بدلوهم فيه.

فقد ذهب أرسطو (384 ق.م - 322 ق.م) إلى الاعتقاد «في أنَّ اللّون خاصّيَّة متأصّلة في الأشياء...، وفي العصور الوسطى ساد الاعتقاد بأنَّ اللّون مادَّة، وأنَّ الضَّوء الصَّادر عن الأشياء يجعلها قابلة للرُّؤية، ووفقاً لرأي الفيلسوف توما الإكويني[22] فإنَّ الضَّوء يتصادم مع الأشياء المتباينة في شفافيَّتها وقابليَّتها للنَّفاذ، ويؤدّي هذا التَّصادم إلى حياديَّة الضَّوء واتّخاذه صورة اللّون الكامن في الأشياء من بادئ الأمر[23]. لقد لجأ فيلون الإسكندريّ في تأويله لرمزيَّة الألوان الأربعة الأساسيَّة إلى التُّراث اليونانيّ حين فسَّرها بالعناصر الأربعة التي تألّف منها العالم.

وفي إطار الثَّقافة العربيَّة الإسلاميَّة أشار Alfred Morabia إلى تأثُّر الفلاسفة العرب والمسلمين بنظريَّات أرسطوطاليس في الألوان ومنهم الكنديّ (796م873-م)، كما أشار إلى آراء الفارابي (ت950م) وإخوان الصَّفا وابن سينا (980م1037-م) الذي خصَّص فصلاً كاملاً في «الشّفاء» لإشكالات الإبصار واللّون.[24] ولا يعنينا في هذا المقام صحَّة الآراء الفلسفيّة قديماً أو حديثاً في الألوان من عدمها بقدر ما يعنينا انفتاح السُّؤال الفلسفيّ على الألوان ومحاولة مقاربتها مقاربة فلسفيَّة قد تغاير أو تماثل غيرها من المقاربات وإيلاء الفلسفة الألوان قدراً من التّفكُّر والتّدبُّر للإجابة عن السؤال التّالي: هل اللّون عرَض أم جوهر؟

---

20- المرجع السّابق ص 89

21- يقول في هذا الإطار: "La tentation est grande de faire du vert une couleur romantique, dont la vogue croissante ne cesse de marquer les années dernières du 18ème siècle au début du nouveau siècle, pour attraire le regard de l'homme vers la nature....Le bleu, couleur du rêve et du ciel infini, est surtout associé au romantisme" راجع مؤلفه Histoire d'une couleur ,Vert .Ed du Seuil .Paris.2013 p172.

22. Thomas Aquinas راهب لاهوتي وفيلسوف إيطاليّ 1225م - 1274م

23. PleijHerman: ColorsDemonic and Divine 20 مرجع سابق ص. ترجمة صديق محمَّد جوهر

24- راجع مقاله: Alfred Morabia: article « Lawn »E.I nouvelle édition.Tome.V Ed.BRILL-LEIDEN Paris.G.P.Maisonneuve et Larose. S.A 1986 p706-709

وأمَّا من الزّاوية العلميَّة فقد أكَّد العلماء أنَّ للألوان تأثيرات سيكولوجيَّة في النَّفس، وقد أجريت تجارب متعدّدة بيَّنت أنَّ اللّون يؤثّر في إقدامنا وإحجامنا ويشعر بالحرارة أوالبرودة وبالسُّرور أو الكآبة، بل يؤثّر في شخصيَّة الإنسان وفي نظرته إلى الحياة[25]، واللّون ضوء معدَّل فيزيائيّاً بواسطة الملوّنات، تراه العين ويترجم في الدّماغ وله أثر فيزيولوجيّ[26].

من هنا استمدَّ البحث في الألوان دلالة ورمزاً وإنتاج معنى شرعيَّته أمام تعدُّد المقاربات وثراء النّتائج المتوصَّل إليها عبر سيرورة تاريخيَّة وأنطولوجيَّة للإنسان، فللفلسفة كما للأدب نصيب في الاحتفاء بالألوان، وللأنتربولوجيا والحفريَّات الأركيولوجيَّة وشتَّى ضروب المعرفة البشريَّة علاقة بالألوان وإسهامات لا تخفى في الحفر فيها معرفيًّا، ما أفضى إلى مراكمة المعاني والدّلالات وتحيين رمزيَّة الألوان من عصر إلى آخر ومن ثقافة إلى ما سواها.

ثمَّ إنَّ توفُّر النُّصوص الدّينيَّة خاصَّة على قدر مهمّ من الإشارات والإحالات على عالم الألوان قد أغرانا بالتّساؤل عن دور المقدَّس الدّينيّ في تشكيل الإرث الرَّمزيّ للونٍ من الألوان أو للألوان مجتمعة، وعن فاعليَّة هذا الدَّور في المجتمع السّياسيّ.

وسنسعى في هذا البحث إلى تعميق النَّظر في رمزيَّة الألوان ووظائفها وأبعادها الدّلاليَّة وعلاقة كلِّ ذلك بالمقدَّس الدّينيّ وبالسّياسيّ، في مسعى إلى تجاوز النَّظرة السَّطحيَّة للألوان وتهميش دورها والحكم بثانويَّتها، واعتبارها مجرَّد أقنعة زائفة تضلّل الحقيقة وتحجب عنَّا جواهر الأشياء.

## إشكاليَّة البحث:

من رهانات البحث الإجابة عن التَّساؤلات التَّالية:

- هل للألوان قداسة؟ كيف تستحيل علامة على شأن مقدَّس دينيًّا؟ هل تتفاوت الألوان قدرة على حمل دلالات دينيَّة مقدَّسة وإنتاج المعاني القدسيَّة؟ ما الأثر الدّينيّ في تشكيل سيميائيَّة اللَّون؟ وما وجوه الانزياح في دلالة الألوان ورمزيَّاتها عبر التَّاريخ البشريّ؟ إلامَ يحتكم تحيين البعد الرَّمزيّ للألوان؟ إلى أيّ مدى وُفّق السَّاسة التُّونسيُّون في استثمار الإرث الرَّمزيّ للونٍ من الألوان في تشكيل الهويَّة البصريَّة لأحزابهم وحركاتهم السّياسيَّة؟ وهل الألوان محايدة حقًّا؟

25- راجع: إيمان سعيد شافع، الألوان www.kutub.info

26- أثبت إسحاق نيوتن 1643م - 1723م أنَّ الضَّوء الأبيض إذا نفذ من منشور زجاجيّ تفكّك إلى سبعة ألوان، وهي ذات الألوان القوس قزحيَّة النّاتجة عن اختراق طيف الشَّمس لقطرات المطر المتساقطة.

## I ـ الألوان والمقدَّس الدّينيّ:

### مدخل: الألوان والأديان

هل للَّون قداسة؟ كيف للونٍ من الألوان أن يستحيل علامة على شأن مقدَّس دينيًّا؟ ما علاقة الألوان بالمقدَّس الدّينيّ؟ وهل من تراشح لرمزيَّة الألوان بين الأديان، أم أنَّ لكل دين نظامه الرَّمزيّ في الألوان؟ هل تتفاوت الألوان قدرة على حمل دلالات مقدَّسة وإنتاج المعاني المقدَّسة؟ كيف أسهمت النُّصوص المقدَّسة والنُّصوص الحوافّ في تشكيل رمزيَّة الألوان وتنميط نظامها الرَّمزيّ في المتخيَّل الجمعيّ؟

«إنَّ الألوان ليست إلا تجلّياً من تجلّيات السرّ الإلهي، وتنحصر براعة الإنسان في تفسير ذلك على نحو صحيح ليس أكثر».[27] هذا ما أقرَّه Pleij Herman في مؤلّفه ألوان شيطانيَّة ومقدَّسة.

ورغم ارتهان عمليَّة التَّرميز الدّينيّ للألوان بالأفكار السَّائدة ووجهات النَّظر المتضاربة أحياناً، ممَّا أدخل على النّظام الرَّمزيّ للألوان شيئاً من الالتباس، إلا أنَّها تبقى فاعلة في التَّأسيس للنّظام ذاته.[28] لقد أريد لجميع الكنائس: «أن تصبح صوراً منسوخة من أورشليم السَّماويَّة، فوفقاً للوصف الوارد بسفر الرُّؤيا الفقرات (21 ـ 22) فإنَّ المدينة الأبديَّة مشيَّدة بأكملها من الذَّهب والفضَّة والأحجار الكريمة، فتمَّ تكريس مفهوم الوميض المطلق والألق اللَّانهائيّ كنسيًّا ورسميًّا».[29]

وفي الثَّقافة المسيهوديَّة ارتبط اللّون الأزرق بالأحاسيس الرُّوحيَّة، واعتُبر لوناً باعثاً على الصَّفاء الذّهنيّ والتّفكُّر، لذلك أقرَّ بوحديبة بارتباط اللّون الأزرق بقيم نابعة من الرَّمزيَّة المسيحيَّة[30]. وفي علاقة بالبلاد التُّونسيَّة فإنَّ اللّون الأزرق لم يستعمل إلا على جدران مدن أندلسيَّة (تستور وسليمان) أو بعض الأحياء الإسرائيليَّة. فالأصل المسيحيّ أو اليهوديّ للّون الأزرق أمر لا يمكن إنكاره.[31]

إنَّ قدسيَّة اللّون الأزرق في الثَّقافة المسيهوديَّة لم يكتب لها الثَّبات إلا بعد القرن الثَّالث عشر، وقبل ذلك كان نظام الألوان المهيمن مكوَّناً من الأبيض والأحمر والأسود وبدرجة أقلّ الأخضر، وهو ما يفسِّر إلى حدٍّ بعيد ارتباط هذه الألوان أساساً بالطُّقوس الدّينيَّة بمقتضى مرسوم بابويّ.[32]

---

27- راجع بوحديبة، مرجع سابق، ص 24

28- لمزيد من التوسُّع راجع مؤلف Frédiric Portal: Symbolique des couleurs symboliques dans l'Antiquité,le Moyen Age et les Temps modernes.éditions du Seuil 1999.

29. Pleij Herman مرجع سابق، ص 24

30- خصّص الباحث الفرنسيّ Michel Pastoreau مؤلّفاً كاملاً لدراسة تاريخ اللّون الأزرق في الثّقافة الغربيّة وسمه بـ Bleu,Histoire d'une couleur.1ère éd.du Seuil 2000 Paris:

31. L'origine chritienne et juive du bleu est indeniable p76. مرجع سابق

32- أصدره البابا أنوسنت الثالث ت 1216م.

من هنا يصبح استعمال الألوان في إطار الثّقافة المسيحيَّة وغيرها من الثّقافات استعمالاً لا يخلو من قصديَّة، فيلبَس اللّون لبوساً قدسيًّا لوروده في النُّصوص المقدَّسة أو حتّى النُّصوص الحوافّ ذات الصّلة بها، والتي تحوم حولها أو تدور في فلكها. لذلك أكَّد Morabia قدرة الألوان على التّأثير في الإنسان حتَّى خارج نظام الإبصار، يقول: «Les couleurs peuvent agir sur l'homme en dehors du système optique».[33]

وسأحاول في ما يلي تتبُّع تجلّيات حضور الألوان في إطار الثَّقافة العربيَّة الإسلاميَّة انطلاقاً من القرآن والسُّنَّة، ثمَّ من خلال مقتطفات من كتاب تفسير الأحلام المنسوب لابن سيرين لاحتكامه إلى المرجعيَّة الدّينيَّة في تفسير الأحلام، والإسهام بطريقة أو بأخرى في تنميط الدِّلالة الرَّمزيَّة للون من الألوان.

## 1 - الألوان في القرآن والسُّنَّة:

«استخدمت الألوان المحدَّدة كالأبيض والأحمر والأزرق والأصفر في مجالات الوصف لما سيكون من أمور الآخرة وقضايا الثَّواب والعقاب والجنَّة والنَّار».[34] ومعنى ذلك أنَّ النصَّ القرآنيَّ قد احتفى بالألوان ودلالاتها في عالمي الغيب والشَّهادة ليؤسّس بذلك في المتخيَّل الجمعيّ نظاماً رمزيًّا لها، نرى أنَّه قد ألبس لبوساً مقدَّساً بما يؤكّد ما ذهب إليه A. Morabia من أنَّ العرب المسلمين لم يشذُّوا عن بقيَّة الشُّعوب في توظيفهم الألوان توظيفاً رمزيًّا، واستند في ذلك إلى ما ورد في قرآنهم من إشارات إلى الألوان كالآية 13 من سورة النّحل: «وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ».

ولا تستمدُّ الألوان قداستها الدّينيَّة بمجرَّد ورودها في النصِّ القرآنيّ بقدر ما تستمدُّها من ارتباطها الوثيق بأركان الإسلام وبكلِّ ما هو عقديّ فيه. ففي فريضة الصَّوم مثلاً أشارت الآية 187 من سورة البقرة «أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ». أشارت الآية إلى ظاهرة كونيَّة هي انبثاق ضوء الصُّبح الأبيض وانفصاله عن ظلام اللّيل الأسود[35]، فالصُّورة المشكَّلة عبر البياض والسَّواد قد ولّدت في ذهن المتلقّي صورة متخيَّلة تيسّر عليه فهم المعنى المقصود من الآية، والتّعرُّف إلى الوقت الشَّرعيّ لنهاية الأكل وبداية الإمساك، وهو ما نراه متَّفقاً في بُعد من أبعاده مع النّظام النَّهاريّ للصُّورة الذّهنيَّة، خاصَّة ما تعلّق بالرُّموز النُّورانيَّة والنُّور الشَّمسيّ تحديداً. وبمثل العلاقة التي عقدها جيلبار دوران G. Durand بين

33- راجع مقاله بدائرة المعارف الإسلاميّة. مرجع سابق ص 710

34- محمّد كمال جعفر: الألوان بين الأديان: اليهوديَّة والإسلام، مكتبة المهتدين الإسلاميَّة لمقارنة الأديان www.al-maktabeh.com.pdf ص 42

35- راجع محمَّد كمال جعفر. مرجع سابق ص 46

الشَّمس رمزاً نورانيًّا مقابل رموز الظّلام، نعقد علاقة بين بياض النَّهار والتزام الصَّائم بفريضة الإمساك استجابة للربّ المتعالي.[36] ثمَّ إنَّ «السّمة المميّزة لاستخدام الألوان في القرآن تكمن دائماً في اتّخاذها معرضاً للعبرة والإقناع بقدرة الله وتوحيده وأهليته وحده للعبادة والتّقديس»،[37] ففي الآيتين 27 و28 من سورة فاطر «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ ثَمَراتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوانُها وَمِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها وَغَرابِيبُ سُودٌ (27) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ كَذلِكَ إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (28). ارتبط الحديث عن الألوان بالقدرة على الخلق؛ فالتّلوين وتعدُّد الألوان في هذا الكون هو من آيات خلق الله. وينسجم ما رواه الحافظ البزار في مسنده عن ابن عبَّاس مع فحوى الآيتين فقد روي أنّه: «جاء رجل إلى النّبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ فقال: أيصبغ ربُّك؟ قال صلّى الله عليه وسلّم: نعم، صبغاً لا ينفض أحمر وأصفر وأبيض.[38]

وفي فريضة الحجّ يكتسب اللَّون الأسود قداسته ودلالاته الإيجابيَّة من الحجر الأسود[39] الذي يمثّل ذروة القداسة الإسلاميَّة ومن كساء الكعبة المشرَّفة[40]. وسيكتسب كما سنرى في القسم الثَّاني من عرضنا دلالات سياسيَّة، وسيستحيل علامة مائزة للخلافة العبَّاسيَّة خلفاً لبياض بني أميَّة.

ويبقى اللّون الأخضر اللّون الأحبّ إلى رسول المسلمين، وقد توارث الخلفاء الأربعة بردته الخضراء تيمُّناً وتبرُّكاً، فهو لون أبواب المساجد ونوافذها، وكذا الشَّأن للمقامات والزَّوايا.[41] يبدو الأخضر إذن «مرصَّعاً بالرُّموز الإيجابيَّة في الثّقافات الكتابيَّة عامَّة والإسلاميَّة خاصَّة».[42]

وقد احتفى النصُّ القرآنيُّ بالجنَّة، فأشار إلى ما فيها من ألوان بصورة تفصيليَّة ترغِّب ولا ترهِّب وتغري ولا تنفّر، كالحديث عن السُّندس الخضر،[43] والخَمْر البيضاء،[44] والحور المقصورات في الخيام[45].

---

36- راجع الفصل الثاني: الرُّموز النّورانيَّة ص 122 وما بعدها من كتاب الأنتروبولوجيا رموزها أساطيرها أنساقها لجيلبير دوران، ترجمة مصباح الصَّمد. المؤسّسة الجامعيَّة للدّراسات والنَّشر والتَّوزيع، ط 1، 1413 هـ 1993م.

37- محمَّد كمال جعفر. مرجع سابق ص 48

38- راجع مختصر ابن كثير، مج 3، ص 82

39- أورد وحيد السّعفي في مؤلّفه "العجيب والغريب في كتب تفسير القرآن: تفسير ابن كثير نموذجاً". عن ابن كثير أنَّ الحجر الأسود لمَّا نزل من الجنَّة يحمله آدم النّبيّ كان أبيض ياقوتة بيضاء مثل الثغامة (والثغامة نبات أبيض يضرب به المثل لشدّة بياضه) ص 432 من طبعة تبر الزَّمان، تونس 2001.

40- راجع بوحديبة: مقال الألوان، مرجع سابق، ص 82

41- راجع مؤلف Michel Pastoureau: Vert, Histoire d'une couleur.éd Seuil. Paris. 2013 الصفحات: 46-49

42- فيصل سعد: مرجع سابق، ص 170، راجع أيضاً تفسيرسورة الرَّحمن 55/46 - 63

43- الإنسان 21

44- الصَّافات 46

45- الرَّحمن 72

وتعضد السُّنَّة القوليَّة والفعليَّة النصَّ القرآنيَّ في إصباغ الألوان صبغة قدسيَّة، فعبر بوَّابة التَّكنية كنَّى رسول المسلمين عن سُنّته ودينه القويم بـ»المحجَّة البيضاء: «قد تركتكم على المحجَّة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك». فهذا الحديث يرسم في ذهن المتلقّي صورة ناصعة لهذا الدّين في استوائه واستقامته وصفاء عقائده، لكأنَّ البياض استقامة والعدول عنه مؤذن بالانحراف. وفي عهد الرَّسول شكّلت ألوان الرَّايات والأعلام صورة أخرى من صور التَّوظيف الرَّمزيّ للألوان، ففي غزوة بدر كان اللّواء أبيض ولواء دخول مكّة أبيض وأصفر أو أصفر خالصاً، وكانت الرَّاية الكبرى سوداءَ وتُسمَّى «العقاب»، وهو ما يعني أنَّ للألوان توظيفات حربيَّة غايتها إرهاب العدوّ وبثّ الرُّعب فيه وهزّ ثقته بنفسه[46]. وهو التَّوظيف الرَّمزيّ ذاته الذي كان في الحملة الصّليبيَّة الأولى 1095م - 1096م، فالدُّروع المتلألئة بالأحجار الكريمة الملوَّنة تبهر الأبصار. يقول Pleij Herman في هذا الصَّدد: «يمكن بالمثل أن يصير اللّون سلاحاً، فما أكثر ما خفقت قلوب الكتَّاب ومؤرّخي الأحداث انبهاراً وطرباً لمرأى الرَّايات والأعلام المرفرفة والوهج المنبعث من الفرسان المتحاربين ممَّن تبثُّ فيهم ألوان أرديتهم الوهَّاجة المتضادَّة الثّقة بالنَّفس وتذكي فيهم روح التحدّي!»[47].

إنَّ هذا التَّوافق في التَّوظيف الرَّمزيّ للألوان في «الحروب المقدَّسة» يجعلنا نقرُّ بتراشح ثقافيّ في رمزيَّة الألوان رغم الاختلافات التي رصدناها آنفاً. وربَّما كشف الجدول المقارنيّ التَّالي هذا التَّوافق بوضوح أكثر.

| | ائتلاف/ اختلاف | اللون | رمزيَّته في الثّقافة المسيهوديَّة | رمزيَّته في الثّقافة العربيَّة الإسلاميَّة |
|---|---|---|---|---|
| 1 | توافق | الأبيض | الطّهارة ـ النَّقاء ـ الصَّفاء ـ القداسة. | الطَّهارة ـ النَّقاء ـ الصَّفاء ـ القداسة. |
| 2 | توافق | الأسود | - رمز العتمة والموت.<br>- من الألوان المقدَّسة في نظام الألوان، وهو اللّون المميَّز لأيّام الآحاد الأربعة السَّابقة للميلاد عند المسيحيّين. | - رمز للموت والشر.<br>- مقدَّس (الحجر الأسود، ستار الكعبة المشرَّفة). |

46- يشير محمَّد كمال جعفر إلى أنَّ الرَّسول كان لايضع العمامة السَّوداء حتَّى تتمّ الغزوة، وأنَّه كان يضع عصابة حمراء أمارة على العزم على القتال. راجع ص 61 - 62 من كتابه، مرجع سابق.

47- Herman Pleij ألوان شيطانيَّة ومقدَّسة، مرجع سابق، ص 37

| | | | |
|---|---|---|---|
| 3 | اختلاف | الأزرق | - هو لون الرَّبّ، وأحد الألوان المقدّسة عند اليهود، ولكنَّه قليل الأهمّيَّة في المسيحيَّة إلى حدود القرن الثالث عشر. ما بعدها اكتسب قداسة ومنزلة مرموقة في نظام الألوان الرَّمزيّ. | - دلالة رمزيَّة سلبيَّة، وجوه الكافرين يوم الحشر، عيون الشّيطان، الزَّبانية، رمز للشرّ والموت. |
| 4 | توافق | الأخضر | - لون الكاثوليك المفضَّل، ويستعمل في عيد الفصح ليرمز إلى البعث، وهو لون التّعميد عند المسيحيين. | هو لون الألوان، رمز للسَّماء والرَّخاء والخصب والبركة. |
| 5 | توافق نسبي | الأحمر | - رمز الاستشهاد في سبيل مبدأ أو دين.<br>- يرتبط في المسيحيَّة بصلب المسيح وآلامه ودماء المسيح.<br>- رمز لجهنَّم. | - رمز الذّكورة، القوَّة، الإثارة.<br>- رمز لجهنَّم. |

هكذا تضافر النصُّ القرآنيُّ والإرث السُّنّيُّ القوليُّ والفعليُّ في تشكيل ملامح التصوُّر العامّ لنظام الألوان الرَّمزيّ، فهما في إطار الثّقافة العربيَّة الإسلاميَّة «هرمونات المتخيّل الجمعي» بلغة باشلار Bachelard. وسيُعمَّق هذا التّنميط الرَّمزيّ للألوان عبر النُّصوص الحوافّ، من ذلك مثلاً نصُّ تفسير الأحلام لابن سيرين[48].

ويعود اختيارنا لهذا النصّ إلى عاملين أساسيَّين:

أوَّلهما: أنَّه ينسجم مع المتخيَّل الدّينيّ لرمزيَّة الألوان، وثانيهما: ليقيننا من أنَّ للعامل النَّفسيّ أثراً كبيراً في تفسير نظام الألوان الرَّمزيّ، فبين الذّاتيّ الغريزيّ والموضوعيّ الكونيّ والاجتماعيّ تبادل دائم قائم على مستوى التّخيُّل، وهو ما اصطلح جيلبار دوران Gilbert Durand على تسميته بالمسار الأنتروبولوجيّ. يقول: "إنَّ الرَّمز هو دائماً نتاج المتطلّبات العضويَّة النَّفسيّة ضمن محيط مادّيّ واجتماعيّ، هذا النّتاج هو ما أسميناه المسار الأنتروبولوجيّ".[49]

لقد اعتبر فرويد الرَّمز أداة بيد اللاشعور أو المكبوت الجنسيّ، وهو يقوم شأنه شأن الاستعارة على المشابهة جليَّة أو خفيَّة. والرَّمز عند فرويد يكون محتواه جنسيًّا بشكل مباشر أو غير مباشر. يقول في هذا الإطار: "أغلب الرُّموز في الحلم رموز جنسيَّة"[50]. ومقابل هذا التَّفسير الفرديّ لرمزيَّة الحلم عند فرويد

48- هو أبو بكر محمّد، ت 110 هـ / 729 م، فقيه من أهل البصرة.

49- جيلبار دوران، مرجع سابق، ص 21

50- نظريَّة الأحلام، سيغموند فرويد، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطّليعة، بيروت، 1980، ص 96

ارتبط مفهوم الرَّمز عند تلميذه Young باللَّاشعور الجماعيّ، وهو المخزون المترتّب عن مراكمة التَّجربة الوجوديَّة منذ ملايين السّنين، «إنَّه صدى لأحداث ما قبل التّاريخ»[51]. ويمثّل اللَّاشعور الجماعي كلّيَّة Totalité من مجموعة من الوحدات يُسمّيها «يونغ»: النَّماذج الأصليَّة Archetypes.

ويتَّضح تبعاً لذلك أنَّ «اللَّاشعور الجماعيّ اليونغيّ يتكوَّن أساساً من الصُّور الغابرة المحتفظ بها في اللَّاشعور، وتعاود الظُّهور في الأحلام بشكل خاصّ، ولا تستثني هذه الصُّور البدائيَّة أحداً من النَّاس، إنَّهم جميعاً أسراها».[52]

وهذه الخبرة المخزونة في ذهن الإنسان تعود لتسفر عن نفسها في الأحلام والحكايا الشَّعبيَّة والممارسة التَّخييليَّة والشِّعر والأدب عامَّة، على حدِّ عبارة الوليّ محمَّد.

وتأسيساً على ما سبق، فإنَّ النَّظر في الألوان دلالةً ورمزاً وإنتاج معنى عبر بوَّابة الحلم قد يمنحنا معطيات إضافيَّة لتصوُّر مجتمع ما عن النّظام الرَّمزيّ للألوان. لذلك اعتمدنا «الباب التّاسع والعشرين في الكساوي واختلاف ألوانها وأجناسها»، فقد أورد ابن سيرين في تفسيره لرؤية الأثواب الملوَّنة في الحلم: «والقميص الأبيض دين وخير، وقال النَّبيُّ ـ عليه السَّلام ـ رأيت كأنَّ النَّاس يعرضون عليَّ وعليهم قُمص، وعرض عليَّ عمر وعليه قميص يجرُّه، قالوا فما أوَّلت ذلك يا رسول الله؟ قال الدّين».[53] و«الجديد الأبيض جاه الرَّجل وعزُّه ودينه وأمانته...، ولبس الثّياب البيض الصَّالح ديناً ودنيا...، والثّياب الخضر قوَّة ودين وزيادة عبادة للأحياء والأموات وحسن حال عند الله تعالى، وهي ثياب أهل الجنَّة، والثّياب الحمر مكروهة للرّجال، وقيل يدلُّ في المرض على الموت والصُّفرة في الثّياب السُّود لمن لا يعتاد لبسها إصابة مكروه، وقيل هي للمريض دليل الموت، والزُّرقة همٌّ وغمٌّ، ومن لبس ملحفة حمراء لقي قتالاً بسبب امرأة، والثّياب بالألوان في سائر النّاس تدلُّ على الشدّة والحزن، وتدلُّ للمريض على زيادة مرض».[54]

إنَّ قراءة متأنّية في هذا النصّ باعتباره نموذجاً لتصوُّر المجتمع العربيّ الإسلاميّ عن رمزيَّة الألوان توقفنا على درجة التَّناغم والانسجام التَّام بين تفسير ابن سيرين للألوان في الحلم ورمزيَّة الألوان في النصّ المقدَّس، فإيجابيَّة اللّونين الأبيض والأخضر بقيت على حالها، في حين احتفظ الأزرق والأحمر بدلالات سلبيَّة:

- الأبيض: الصَّلاح ديناً ودنيا

51. Charles Boudouin: L'œuvre de Jung.éd, Petite bibliothèque Payot. Paris. 1963 p 62.

52- الولي محمَّد، مرجع سابق، ص 202

53 ـ تفسير الأحلام: ابن سيرين. نسخة رقميَّة. مكتبة المصطفى، ص 288

54- ابن سيرين، مرجع سابق، ص ص 292 -293

- الأخضر: قوَّة دين، قداسة، عبادة، حسن حال

- الأسود: المكروه والموت

- الأزرق: الهمُّ والغمُّ

- الأحمر: القتال والخصام

وقد يرجع البعض هذا التَّناغم إلى قرب المفسِّر ابن سيرين من العصر الإسلاميّ الأوَّل، ولكنَّ النّظام الرَّمزيّ للألوان بقي على حاله في نوع من الثَّبات حتَّى لدى المفسّرين المتأخّرين، مثلما هو الحال في تفسير "تعطير الأنام في تفسير المنام" لعبد الغنيّ النَّابلسي[55]، فالأزرق مثلاً بقي نذير شؤم وفألاً للمكروه في تفسيره، بما يعني وجود رفض سيكولوجيّ وثقافيّ لهذا اللّون في إطار الثَّقافة العربيَّة الإسلاميَّة[56].

وبهذا يتبيَّن لنا أنَّ النُّصوص المقدَّسة والنُّصوص الحوافّ ممثّلة في كتب تفسير الأحلام قد ساهمت مجتمعة في قولبة النّظام الرَّمزيّ للألوان في الثّقافة العربيَّة الإسلاميَّة، ذلك النّظام الذي ساهم الإرث العقديّ والعرفيّ والشّعبيّ في ضبط معالمه وتشكيل هويَّته ليتأكَّد لنا مرَّة أخرى أنَّ رمزيَّة الألوان مسألة ثقافيّة بامتياز، وأنَّ إيلاء السّياسيّ هذا الإرث الرَّمزيّ أمر لا يخلو من وجاهة؛ بالنَّظر إلى فاعليَّة اللَّون في تشكيل الصُّور الذّهنيَّة في المتخيَّل الجمعيّ، والتَّأثير في المتلقّي بصريًّا وانفعاليًّا قبل التَّأثير فيه عقليًّا.

والسُّؤال الذي نطرحه في هذا المستوى:

إلى أيِّ مدى وفّق السَّاسة التُّونسيُّون في استثمار الإرث الرَّمزيّ للون من الألوان في تشكيل الهويَّة البصريَّة لأحزابهم وحركاتهم السّياسيَّة؟ وما أثر الدّينيّ في تشكيل سيميائيَّة اللّون سياسيًّا؟

## II ـ الألوان والسّياسة، أو سياسة الألوان:

### مدخل:

لمَّا كان للألوان كلُّ هذه الفاعليَّة والقدرة على تمتين الرَّوابط الاجتماعيَّة، وصارت علامة مائزة لعقيدة من العقائد أو لدين من الأديان أو لطقس من الطّقوس، فإنَّ التَّساؤل عن قدرتها على رصف الصُّفوف وتوحيد المجموعة على لون واحد في المجال السّياسيّ صار شرعيًّا. والنَّاظر في التَّاريخ السّياسيّ للثَّقافة العربيَّة أو

55- فقيه حنفيّ دمشقيّ، ت 1143 هـ - 1731م.

56- راجع بوحديبة، مرجع سابق، ص 75

غيرها من الثّقافات قديماً وحديثاً يكتشف أنَّ الألوان قد لعبت دوراً مهمَّاً في تشكيل الهويَّة البصريَّة لثورة من الثَّورات أو لحزب من الأحزاب أو لخلافة من الخلافات أو لسلالة من السُّلالات الحاكمة.

من هنا انفتحت الألوان دلالة ورمزاً وإنتاج معنى على الإيديولوجيّ والسّياسيّ، فضلاً عن الاستيطيقيّ والأسطوريّ والعقديّ والدّينيّ، وهو ما أفضى إلى تشكيل دلالات الألوان الرَّمزيَّة تشكيلاً مغايراً، على قاعدة التَّبنّي أو التَّخطّي أو التَّعديل في علاقة بنظامها الرَّمزيّ المنمَّط دينيَّاً. والمتصفّح لتاريخ الشُّعوب والأمم قديماً أو حديثاً يقف بيسر على حضور اللّون رمزاً للثَّورات وعنواناً بارزاً لها، ففي الفيليبّين أنهت الثّورة الصَّفراء حكم ماركوس بعد عشرين سنة من الدّكتاتوريَّة. وسمِّيت الثّورة الصَّفراء لأنَّ الشَّارات التي رفعت سنة 1986م كانت صفراء مع شعار «ارحل»، واتَّخذت الثَّورة الشّعبيَّة بقرغيزستان 2005م اللّون ذاته رمزاً لها وعرفت أيضاً بثورة اللّيمون. وفي أوكرانيا 2004م اندلعت ثورة البرتقال أو الثورة البرتقاليَّة، وأطلق في الكويت اسم الثّورة الزَّرقاء على الحركات الاحتجاجيَّة المطالبة بمشاركة المرأة الكويتيَّة في الحياة السّياسيَّة. ولسنا في حاجة للتّذكير بفصول الثّورة البولشيفيَّة الحمراء 1917م بزعامة لينين للانتقال من البورجوازيّة الدّيمقراطيَّة إلى الثّورة الاشتراكيَّة. فكانت هذه الثَّورة بداية عصر الثَّورات الاشتراكيَّة في الدُّول الرّأسماليَّة، وظهر مصطلح الثّورة الملوَّنة ليحيل على حركات العصيان المدنيّ وأعمال الشَّغب في بعض الدُّول المناوئة للغرب، كالدُّول الشُّيوعيّة السَّابقة وسط أوروبَّا وشرقها ووسط آسيا ولبنان وإيران في بداية القرن الحادي والعشرين.

(انظر الصُّورة أدناه وهي مقتطفة من الموسوعة الحرَّة ويكيبيديا).

الألوان والثّورات

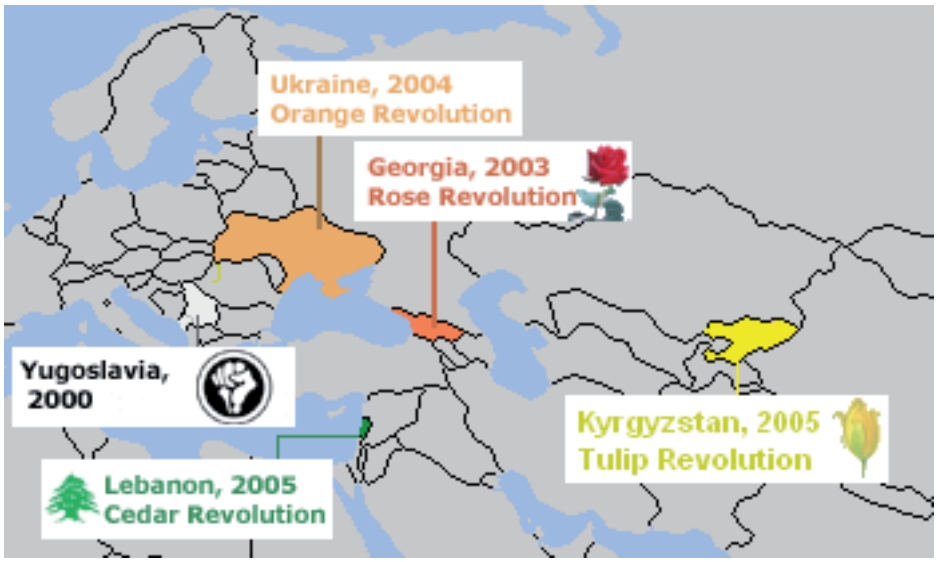

وفي تاريخ الثّقافة العربيَّة الإسلاميَّة قديماً ارتبطت رمزيَّة الألوان بالسُّلطة السّياسيَّة القائمة من خلال ابتداع أحاديث منسوبة إلى رسول المسلمين، ومنها: «إنَّ النَّاس بخير ما لبسوا السَّواد»، وقد راج هذا الحديث في أواخر القرن الأوَّل الهجريّ وأوائل القرن الثَّاني الهجريّ، أي قبيل قيام الدَّولة العبَّاسيَّة وأثناءها، التي اتَّخذت السَّواد شعاراً لها، «فكأنَّ دعاة العبَّاسيين أذاعوا مثل هذا القول ليضمُّوا إليهم غالبيَّة النَّاس في زيّ خاصّ يحيطونه بقداسة شرعيَّة تجعل اتَّخاذه توجيهاً نبويَّاً. ولا يعقل أن يربط الرَّسول خيريَّة الحياة البشريَّة بلبس السَّواد».[57]

ومثل ما آلت السُّلطة إلى العبَّاسيين بعد بني أميَّة، آل البياض رمز الأمويّين إلى سواد بني العبَّاس،[58] وسيؤول الأمر في ظلِّ الدَّولة الفاطميَّة إلى اتّخاذ اللَّون الأخضر رمزاً لها مشرق البلاد العربيّة ومغربها.[59]

الهويّة البصريّة للخلافة العبّاسيّة

الهويّة البصريّة للخلافة الأمويّة

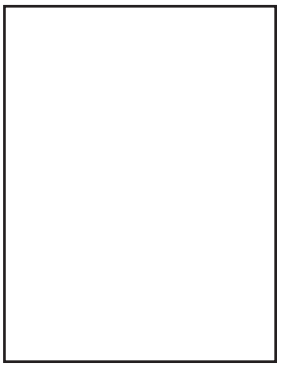

الهويّة البصريّة للدّولة الفاطميّة

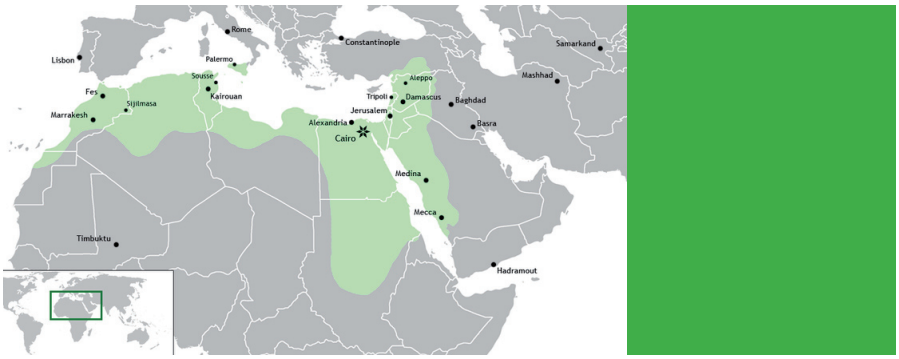


57- محمد كمال جعفر: مرجع سابق، ص 58

58- أشار مورابيا إلى الدّلالة الرَّمزيَّة المضافة إلى الأسود في ظلّ الخلافة العبّاسيَّة، يقول: « - On lui se conjuguent la vengeance et la r volte (drapeau noir des Abbasides)dans l'histoire des superstitions au terre de l'islam » ص711 من مقاله بدائرة المعارف الإسلاميّة، مرجع سابق.

59- راجع مؤلف Michel Pastoureau: Vert, Histoire d'une couleur.éd Seuil. Paris. 2013 بالصّفحتين 48و49 حيث يقول: "Après la mort de Mahomet en 632,il semble bien que le vert soit devenu non pas tant la couleur de la nouvelle religion que la couleur dynastique de sa famille …il prend alors une dimension politique,s'opposant d'abord au blanc des califes Omeyyades…puis surtout au noir des Abbasides".

استحال اللّون إذن جزءاً لا يتجزّأ من كيان السُّلطة الحاكمة، وعلامة على بسط السَّيطرة اللّونيَّة والسّياسيَّة على رقعة جغرافيَّة بعينها. والمتتبّع للسُّلالات الحاكمة في البلاد التُّونسيَّة يجد أنَّ الألوان قد لعبت دوراً مهمَّاً في تشكيل هويَّتها البصريَّة.

الهويّة البصريّة لبعض السّلالات الحاكمة بتونس

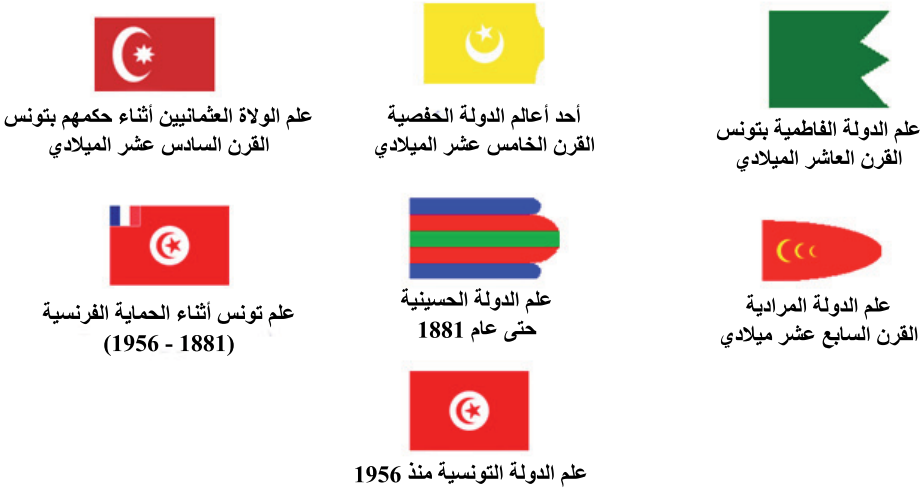


ومن أبرز الاستنتاجات المستخلصة هو تفرُّد علم الدَّولة الحسينيَّة حتَّى عام 1831م باللّون الأزرق في هويَّتها البصريَّة، وسيصبح هذا اللّون في ظلِّ الحماية الفرنسيَّة رمزاً لتبعيَّة الإيالة التُّونسيَّة للسَّلطة الفرنسيَّة، حيث ثبّت علم فرنسا في الزّاوية العلويّة اليسرى لعلم تونس قبل أن تحصر هويَّتها البصريَّة في اللّونين الأحمر والأبيض مع الهلال والنَّجمة الخماسيَّة في الوسط منذ 1956م.

إنَّ الوعي بقيمة الهويَّة البصريَّة في المجال السياسيّ هو ما دفعنا إلى التَّساؤل عن مدى إيلاء الأحزاب والحركات السّياسيَّة التُّونسيَّة رمزيَّة الألوان حظَّها من الاهتمام والعناية.

لذلك آثرنا الانطلاق من الهويَّة البصريَّة لعدد من الأحزاب والحركات السّياسيَّة نستنطق مكوّناتها في مرحلة أولى، ثمَّ نحلّل أبعاد الألوان الرَّمزيَّة فيها، مقارنة بالنّظام الرَّمزيّ المشكّل في المخيّلة الجماعيَّة عن هذا اللّون أو ذاك.

### 1- سيميائيَّة الألوان في الهويَّة البصريَّة لحركة النَّهضة:

قبل 14 جانفي 2011م كانت الهويَّة البصريَّة للحركة متكوّنة من دائرة حمراء فيها الهلال الأحمر والنَّجمة الخماسيَّة الحمراء، تحملها حمامة بيضاء وزرقاء وتحيط بهما سنبلتان خضراوان أصلهما ثابت فوق كتاب بنفسجيّ كتب عليه باللّون الأخضر «حركة النَّهضة».

وهذه الكثافة اللّونيَّة (6ألوان) والشّكليَّة (6أشكال) تضاعف من الدّلالات الرَّمزيَّة لهذه الهويَّة البصريَّة، ومنها الانسجام مع الإرث الرَّمزيّ للّون الأخضر في الثّقافة العربيَّة الإسلاميَّة، خاصَّة إذا ربطناه بمعاني الخصب والنَّماء، فهو لون الألوان كما أشرنا في القسم الأوَّل من عملنا. ومنها التّجذُّر في الهويَّة العربيَّة الإسلاميَّة مرموزاً إليها بالكتاب، وفي الهويَّة الوطنيَّة من خلال الدَّائرة الحمراء الحاملة للهلال والنَّجمة الخماسيَّة المنسجمة مع الدّلالة الرَّمزيَّة للعلم التُّونسيّ (حمرة الشُّهداء، بياض السَّلام، نجمة الأركان الخمسة للإسلام). أمَّا الحمامة البيضاء والزَّرقاء ففيها دلالة على الانفتاح، وإشارة إلى حمل السَّلام لتونس.

قبل 14جانفي2011، بعد 14 جانفي 2011

ومقابل هذه الكثافة اللّونيَّة والشّكليَّة في شعار الحركة قبل 14 جانفي 2011 انحصرت الهويَّة البصريَّة بعده في ثلاثة ألوان أساسيَّة هي الأبيض خلفيَّة والأزرق بدرجتين مختلفتين مع ثبات النَّجمة الخماسيَّة الحمراء في الوسط. واستغني عن الهلال الأحمر وعن السّنبلتين الخضراوين والكتاب البنفسجيّ، والملفت للانتباه هو الاستغناء عن الأخضر لون الألوان، والحال أنَّه اللَّون الأكثر ارتباطاً بالنّظام الرَّمزيّ للألوان في الثّقافة العربيَّة الإسلاميَّة، كما عرضنا سابقاً.

والسُّؤال: لِمَ هذا الاستغناء؟ وما دواعيه؟

أغلب الظَّنّ أنَّ الاستحقاقات الانتخابيَّة ورسائل الطَّمأنة للآخر المغاير فكريَّاً وإيديولوجيَّاً داخل البلاد وخارجها هي التي فرضت تحيين الهويَّة البصريَّة لحركة النَّهضة، فقد زاوجت في تعاملها مع الألوان بين الإرث الرَّمزيّ ذي المرجعيَّة الدّينيَّة الإسلاميَّة ممثّلاً في قداسة البياض خلفيَّة، وبين الإرث الرَّمزيّ للأزرق المسيهوديّ.

وقد يتأوَّل توظيف اللَّون الأزرق من زاوية سيكولوجيَّة-نفسيّة باعتباره لوناً بارداً يبعث على الرَّاحة والاسترخاء، وهو في دلالاته الرَّمزيَّة أيضاً أكثر الألوان لا مادّيَّة، وموجته البصريَّة قصيرة جدَّاً بخلاف

طول موجة اللّون الأحمر، ثمَّ إنَّه أصبح اللّون الأكثر تعبيراً عن التَّوافق الإقليميّ (علم الاتّحاد الأوروبّي)، أو الدّوليّ (علم الأمم المتَّحدة، شعار اليونسكو...).

أمَّا الاستغناء عن الكتاب واللَّون الأخضر خاصَّة فقد يعزى إلى محاولة فكّ الارتباط الرَّمزيّ بالاتَّجاه الإخوانيّ، والتَّأكيد على أنَّ الحركة بدءاً من هويَّتها البصريَّة هي حركة سياسيَّة مدنيَّة رغم الرَّوافد الدّينيَّة التي تغذّي خطابات ممثّليها قادة وقاعدة.

**2- سيميائيَّة الألوان في الهويَّة البصريَّة لحزب العمَّال:**

تبدو الخلفيَّة الإيديولوجيَّة للأحزاب السّياسيَّة فاعلة في تخيُّر ألوان الهويَّة البصريَّة لهذا الحزب أو تلك الحركة، وبمجرَّد انخراط اللّون أيّ لون في السّياسيّ يفقد عفويَّته وحياديَّته، بل إنَّ بُعده الجماليّ قد يضمر ويفتر حال اصطباغه بالسّياسيّ، تماماً مثلما يفقده إذا مازجته العقيدة. فالحمرة المحايثة للمطرقة والمنجل والنَّجمة اللّينينيَّة مفضية بالضَّرورة إلى وجود هوَّة ترميزيَّة بين حزب العمَّال الباثّ والشَّعب المتلقّي، فحمرة دماء الشُّهداء استعيضت بالحمرة الثّوريَّة للعمَّال والفلَّاحين، والنَّجمة الحمراء التُّونسيَّة المحيلة على أركان الإسلام الخمسة استبدلت بالنَّجمة الخماسيَّة اللّينينيَّة التي ترمز إلى المراحل الخمس التي ستمرُّ بها البشريَّة من البدائيَّة إلى الشّيوعيَّة. وهذه الفجوة الرَّمزيَّة بين حمرة البلاشفة وحمرة الشُّهداء والهلال التونسي ومنجل الثَّوريّين الشُّيوعيّين كان لها في تصوُّرنا أثر في استقطاب النَّاخبين أو تنفيرهم من الحزب. وربَّما كان للنّتائج الانتخابيَّة أكتوبر2012م أثر في السَّعي إلى مراجعة الهويَّة البصريَّة لحزب العمَّال، فحذفت «شيوعيّ» وحذفت جملة «يا عمَّال العالم اتَّحدوا»، ثمَّ إنَّ انخراط هذا الحزب في الجبهة الشَّعبيَّة قد أفضى إلى الاكتفاء بالمركَّب النَّعتيّ «الجبهة الشَّعبيَّة» باللّون الأحمر على خلفيّة بيضاء. فهذه المراجعات المتكرّرة للهويَّة البصريَّة لهذا الحزب أو ذاك تعكس رغبة جامحة من قادة الأحزاب في ضمان القابليَّة البصريَّة لألوانهم وشعاراتهم قبل الاقتناع بالبرامج الانتخابيَّة والخطوط الكبرى التي ستنتهجها الأحزاب والحركات السّياسيَّة مستقبلاً.

وهكذا تغدو سياسة الألوان فنَّاً من الفنون، له من الوقع والفاعليَّة في النَّفس الشَّيء الكثير. تصبغ السّياسة اللّون إذن بإرادة السَّائس، فتمنحه معاني ودلالات، بل تصيّره رمزاً يراوح بين قطبي السَّلب والإيجاب. والسّياسة تفسد في الغالب جماليَّة التّلقّي للون من الألوان، رغم أثالة إرثه الرَّمزيّ. ورغم قدسيَّة هذا اللّون أو ذاك، فإنَّه يفقد بريقه وجاذبيَّته بمجرَّد انخراطه في السّياسيّ أو تحويله علامة مائزة لحزب من الأحزاب أو حركة من الحركات، وكذلك الأمر إذا استحال اللَّون رمزاً لدين من الأديان أو عقيدة من العقائد.

لقد تشظَّت الدّلالة الرَّمزيَّة للألوان عبر السّياسيّ، مثلما تشظَّت على الصَّعيد الدّينيّ، صارت الحمرة «حمرات»؛ حمرة الشُّهداء وحمرة الثّوَّار وحمرة الدَّساترة...، وقسْ على ذلك باقي الألوان.

**3- سيميائيّة الألوان في الهويَّة البصريَّة للحزب الجمهوريّ، وحركة نداء تونس:**

بين الهويَّتين البصريَّتين نقاط التقاء رغم الاختلافات، من ذلك مثلاً:

- استعمال اللّونين الأبيض والأحمر، وهما اللّونان الرَّسميّان للعلم التُّونسيّ، بما يعني الانسجام مع الإرث الرَّمزيّ لهذين اللّونين في علاقة بالعلم التُّونسيّ وبالهويَّة الوطنيَّة أساساً.

- محافظة حركة نداء تونس على الهلال والنَّجمة الأحمرين مقابل استغناء الجمهوريّ عنهما.

- تعدُّد الدّلالات الرَّمزيَّة للشّعارين النَّباتيَّين (النَّخلة للنّداء، والزَّيتونة للجمهوريّ)، النَّخلة وما توحي به وتحيل عليه من صمود وكبرياء فضلاً عن أنَّها شجرة مباركة[60] ورد ذكرها في النَّصّ القرآنيّ، ثمّ إنَّها رمز للجنوب التُّونسيّ وللمناطق الدَّاخليَّة. والأمر ذاته ينسحب على الزَّيتونة،[61] وما تستدعيه في ذهن المتلقّي من معاني الأصالة والتَّجذُّر والقداسة.

60- يشير محمّد عجينة إلى أنَّ النّخلة كانت شجرة السّاميّين المقدَّسة، وكانت ذات أنواط شجرة العرب المقدَّسة، والعبلاء شجرة ذي الخلصة. راجع موسوعة أساطير العرب عن الجاهليّة. ج2. مرجع سابق. ص 200

61- القسم بها في النَّصّ القرآنيّ "والتين والزَّيتون..." (آية 1من سورة التين) دليل احتفاء بشجرة مباركة "لا شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (سورة النور الآية 35).

إنَّ الألوان وما يصحبها من شعارات تكتسي في المجال السّياسيّ مكانة مركزيَّة «في سيرورات المسرحة الاجتماعيَّة من جهة، وفي بناء الإيديولوجيَّات من جهة أخرى، بما يحيل على تشييد العوالم المنشودة في طوباويَّات الفعل السّياسيّ».[62]

ويبقى الرّهان الانتخابيّ أكبر دافع لاحتفاء السّياسيّين بالألوان، وبنظامها الرَّمزيّ قديماً وحديثاً.

### 4- سيميائيَّة الألوان في الهويَّة البصريَّة لحزب المسار:

يمثّل هذا الحزب في هويَّته البصريَّة الاستثناء الوحيد في توظيفه اللّون الأسود خلفيَّة. وإذا كان السَّواد في الهويَّة البصريَّة لحزب التَّحرير ذي المرجعيَّة الإسلاميَّة مفهوماً (خلفيَّة سوداء كتبت عليها الشَّهادتان بالأسود أو العكس)، فإنَّه في الهويَّة البصريَّة لحزب المسار ذي المرجعيَّة الحداثيَّة يبدو مثيراً للتَّساؤل، فباستثناء العبَّاسيّين الذين اتَّخذوا السَّواد شعاراً لخلافتهم، يغيب هذا اللَّون أو يكاد عن الهويَّة البصريَّة لأغلب الأحزاب السّياسيَّة العربيَّة بوجه عام، والأحزاب السّياسيَّة التُّونسيَّة على وجه الخصوص. فهل مردُّ ذلك إلى الرَّغبة في التّفرُّد البصريّ بين الأحزاب المتنافسة؟ أم أنَّ الأمر يعود إلى الرَّغبة في تحيين البعد الرَّمزيّ لهذا اللّون؟ فهو استيطيقيّاً لون الأناقة، وهو من الألوان المحايدة neutre وهو رمز للقوَّة، ولكنَّه في إطار النّظام الرَّمزيّ للألوان في الثَّقافة العربيَّة الإسلاميَّة لون منبوذ يذكّر بالشُّؤم والموت، وحتَّى الأبيض المصاحب له يبدو باهتاً وقليل الفاعليَّة لطغيان السَّواد عليه. وهو ما شكَّل في تصوُّرنا فجوة بصريَّة بين هذا الحزب وبين الإرث الرَّمزيّ للألوان في المتخيّل الجمعيّ.

إنَّ البحث عن الاستثناء البصريّ خطوة غير مضمونة النتائج، إذ قد يتحوَّل السَّعي إلى التُّفرّد والتّميُّز إلى عامل معيق لشعبيَّة هذا الحزب أو تلك الحركة، لاسيَّما إذا افتقرت الهويَّة البصريَّة لأبسط متطلّبات الرُّؤية الجماليَّة في توظيف الألوان سياسيّاً.

62- منير السّعيداني: الرّؤية والمدى، حصاد نقديّ للبحث في المخيال. منشورات وحدة بحث "في المتخيّل" بكلّيَّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة بصفاقس، ط1 2006، ص 113

## الخاتـمة

وخلاصة كلّ ما تقدَّم أنَّ علاقة الألوان بالمتخيَّل وطيدة جدًّا، بل تزداد تعمُّقاً مع احتفاء الفكر البشريّ ببُعد آخر من أبعاد الإنسان، وهو البُعد الرَّمزيّ. ذلك أنَّ اعتبار الإنسان حيواناً رامزاً Animal symbolecom يؤكّد فيما يؤكّد قيمة الرَّمز في حياته، ويدفع بنا إلى الإقرار بأنَّ إنسانيَّة الإنسان لا تتحدَّد بأنَّه ذات عاقلة مفكّرة وفق الكوجيتو الدّيكارتيّ فحسب، بل هو إلى جانب ذلك ذاتٌ رامزة تتوسَّل المتخيَّل لإنتاج المعنى والدّلالة لكلِّ ما يحيط به من أشياء وما تبصره عيناه من ألوان. فالإنسان لا يحيا في كون مادّيّ بشكل صرف، بل في كون رمزيّ، وهو ما يميّز الإنسان عن سائر المخلوقات بوجود هذا النّظام الرَّمزيّ Système symbolique، وهذا النّظام قد أحدث تغييراً جذريًّا في نظرة الإنسان إلى نفسه وفي مجموع الحياة البشريَّة.

وقد حاولنا في هذا البحث إعادة الاعتبار للألوان ولنظامها الرَّمزيّ باعتبار علاقتها بالدّينيّ والسّياسيّ، وملازمتها للإنسان في مختلف أطوار وعيه بأناه وبالكون المحيط به تأثيراً وتأثُّراً. ونحن إذ نلفت الانتباه إلى الحفر في الألوان حفراً معرفيًّا إنَّما نشدّد في المقابل على أهمّيَّته مبحثاً أنتروبولوجيًّا وسوسيولوجيًّا وتاريخيًّا، يقرُّ بالصّلة الوثيقة والمتأثّلة بين الإنسان والألوان في تاريخ الشُّعوب والحضارات.

ثمّ إنَّ الإقرار بحياديَّة الألوان المطلقة بحاجة للمراجعة، والرَّأي عندنا أنَّه لا حياد للألوان إلا إذا اقترنت بالطَّبيعة في عفويَّتها وبداهتها وتلقائيَّتها، أمَّا حينما يتعلّق الأمر بعالم الإنسان ثقافة وحضارة ودينا وسياسة فلا حياد ولا بداهة، ولا يخلو الأمر حينئذ من أبعاد ومقاصد وغائيَّات معقلنة ومقنَّنة ترفض الارتجال والاعتباط، وتفرض الصَّرامة والانضباط عند التَّعامل مع الألوان. وفضلاً عمَّا تقدَّم فإنَّنا لاحظنا على الألوان شيئاً من الثَّبات التَّرميزيّ في مجالات بعينها، فدلالة اللَّون الأخضر على البيئيّ الإيكولوجيّ تكاد تكون ثابتة تماماً مثلما هو الحال للَّون ذاته في قانون الطُّرقات، ودلالة الأزرق على التَّوافق والاجتماع الأمميّ أمر لا ينكره إلا غافل عمَّا آلت إليه دلالة الألوان بعد سيرورة تاريخيَّة طويلة الأمد، ولنقسْ على ذلك رمزيَّة اللَّون الأحمر أو الأصفر، ومعنى ذلك أنَّه بالإمكان الحديث عن نظام رمزيّ كونيّ للألوان مقابل أنظمة رمزيَّة خاصَّة بكلِّ ثقافة.

يفقد اللَّون إذن عفويَّته وحياديَّته بمجرَّد اصطباغه بالرُّموز الإيديولوجيَّة والدّينيَّة، أوانخراطه في السّياسيّ، غير أنَّ تخمة التَّوظيف السّياسيّ للألوان مفضية بالضَّرورة إلى فقدها الثّقل الدّلاليّ الرَّمزيّ وتشظّي نظامها الرَّمزيّ، وهو ما اعتبرناه فاعلاً بشكل من الأشكال في علاقة الأحزاب والحركات التُّونسيّة الباثّة بالشَّعب التُّونسيّ المتلقّي، واعتقادنا راسخ في أنَّ الأمر ينسحب على سائر المجتمعات البشريَّة حينما تتَّخذ الألوان مطيَّة ترميزيَّة وعلامة على شأن دينيّ أو سياسيّ أو ما سواهما.

## المراجع العربيّة:

- هارمان بلاي: ألوان شيطانيَّة ومقدَّسة: اللَّون والمعنى في العصور الوسطى وما بعدها، ترجمة صديق محمَّد جوهر. هيئة أبو ظبي للثّقافة والتُّراث، «كلمة»، ط 1. 1431 هـ.

- محمَّد كمال جعفر: الألوان بين الأديان: اليهوديَّة والإسلام، مكتبة المهتدين الإسلاميَّة، لمقارنة الأديان .www.al-maktabeh com.pdf

- جيلبير دوران: الأنتروبولوجيا، رموزها أساطيرها أنساقها، ترجمة مصباح الصَّمد. المؤسَّسة الجامعيَّة للدّراسات والنَّشر والتَّوزيع، ط 1 1413 هـ 1993 م.

- فيصل سعد: عذاب القبر في المتخيَّل الإسلاميّ. منشورات وحدة البحث في المتخيَّل بكليَّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة، بصفاقس. ط1، 2012.

- وحيد السّعفي: «العجيب والغريب في كتب تفسير القرآن: تفسير ابن كثير نموذجاً»، طبعة تبر الزَّمان تونس.2001.

- منير السّعيداني: الرُّؤية والمدى، حصاد نقديّ للبحث في المخيال. منشورات وحدة البحث في المتخيَّل بكليَّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة بصفاقس، الطبعة الأولى 2006.

- أبو بكر محمَّد بن سيرين: تفسير الأحلام. نسخة رقميَّة. مكتبة المصطفى.

- إيمان سعيد شافع: الألوان www.kutub.info

- محمَّد عجينة: موسوعة أساطير العرب عن الجاهليَّة. ج.2. دار الفارابي، بيروت ـ لبنان، ط1 1994م.

- سيغموند فرويد: نظريَّة الأحلام ـ ترجمة جورج طرابيشي، دار الطَّليعة، بيروت 1980.

- حازم القرطاجنّي أبو الحسن: منهاج البلغاء وسراج الأدباء. تقديم وتحقيق محمَّد الحبيب بن الخوجة. دار الغرب الإسلاميّ، الطّبعة الثّالثة، بيروت 1937م.

- عبد العزيزمطر: علم اللّغة وفقه اللّغة، تحديد وتوضيح. دار قطري بن الفجاءة. ط1 ـ 1405هـ1985-م. قطر.

- ابن منظور: لسان العرب. ط دار صادر، بيروت، د.ت.

- الصَّادق الميساوي: الألوان في اللّغة والأدب. ضمن: حوليَّات الجامعة التُّونسيَّة العـ36ـدد 1995م.

## المراجع الأجنبيّة:

- Charles Boudouin: L’œuvre de Jung.éd. Petite bibliothèque Payot. Paris. 1963

- AbdelwahhebBouhdiba: Les Arabes et la couleur ; dans: Culture et société. Publication de l’université de Tunis 1978. Fac des lettres et sciences humaines de Tunis. 6ème série. Philosophie littérature – volume XII P.P 73 - 85.

- Gilbert Durand: Les structures anthropologiques de l’imaginaire, éd. Dunod, Paris 1992.

- Alfred Morabia: article « Lawn » E.I nouvelle édition T.V ; éd.BRILL-LEIDEN Paris.G.P.Maisonneuve et Larose. S.A 1986. P p: 706 – 709.

- Alfred Morabia Recherches sur quelques noms de couleur en arabe classique.Revue StudiaIslamica.n 21 ; 1965.

- Michel Pastoureau: Bleu, Histoire d’une couleur. 1ère édition du Seuil 2000.

- Michel Pastoureau: Vert, Histoire d’une couleur.1ère édition du Seuil. Paris.2013

- Frédiric Portal: Symbolique des couleurs symboliques dans l’Antiquité, le Moyen Age et les Temps modernes.éditions du seuil 1999.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com


الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

**info@mominoun.com**

**www.mominoun.com**



جميع الحقوق محفوظة © 2016

All rights reserved © 2016